العدد الثامن والعشرون

المحور : تعالي القيم والمسؤوليات المشتركة

الكرامة الإنسانية في المفهوم الإسلامي

محمد السماك *

احتوى بحثي عن الكرامة على قسمين، **الأول:** سوف أتحدث عن مفهوم الكرامة الإنسانية في الإسلام ملقياً ضوءاً على أسسها الشرعية، **والثاني:** سوف أتحدث عن موقف إسلامي من تحديات الكرامة الإنسانية في ظل العولمة التي تلقي بظلها على الثقافات والعقائد والأديان المختلفة.

أولاً: في مفهوم الكرامة الإنسانية إسلاميا

تعلّمنا الأدبيات الدينية أنه في البدء كانت للإنسان حياة في الجنة تتسم نظرياً بالنعيم المقيم. بعد الوقوع في الغواية وارتكاب فعل المعصية ثمَّ التوبة، أصبحت للإنسان حياة في الدنيا تقوم على قواعد يمكن استخلاصها من القرآن الكريم على النحو التالي:

أولاً: إن الإنسان لا يأثم على ذنب لم يقترفه، وبالتالي فإنه لا يولد مذنباً بل يولد على الفطرة. أي أنه يخلق مبرمجاً للبحث عن الله والإيمان به، (وَلاَ تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(الأنعام/ 164)، (وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(الإسراء/ 15).

ثانياً : أن الإنسان هو خليفة الله على الأرض، وخلافة الله مهمة تعكس أعلى مراتب التكريم الإلهي للإنسان، (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(البقرة/ 30).

ثالثاً: لأن الإنسان هو خليفة الله، فقد سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض (لقمان/ 20)، وقال: (اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(إبراهيم/ 31-34).

هذا يعني أن الله خلق قوانين الطبيعة لتكون مسخرة للإنسان ليقوم بمهمة خلافة الله في إعمارها، (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود/ 61)، ذلك أن من مقومات خلافة الله عمارة الكون وبنائه خدمة للإنسان وليس إفساده وتدميره.

رابعاً: إن خلافة الله أمانة. أي أن خلافة الله في الناس (الحكم) أمانة. وخلافة الله في الطبيعة (البيئة) أمانة. والأمانة مسؤولية كبرى، (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَالجِبَال فأَبَيْنَ أن يَحْملنَهَا وَأشْفقنَ منْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إنّهُ كَانَ ظَلوماً جَهُولاً)(الأحزاب/)72.

خامساً: إن الله خلق الإنسان بحيث يقدر على استجلاء وعلى استيعاب علوم الدنيا كلها، (وعلم آدم الأسماء كلها)(البقرة/ 31). ولذلك حثّ الله الإنسان على أن يتفكر في خلقه وفي نفسه وفي الكون من حوله، حتى يدرك إن سقف العلم مرتفع وان آفاقه واسعة وانه مهما اكتشف الإنسان من معادلات المعرفة فثمة مزيد يجب أن يعمل عقله وفكره على اكتشافه. (وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً)(الإسراء/ 85). (وفوق كلّ ذي علم عليم)(يوسف/) 76.

سادساً: خلق الله الإنسان (في أحسن تقويم)(التين/ 4) و(صوّره في أحسن صوره)(التغابن/ 3)، من الخلية الحية بما تحمله من مورّثات ووظائف، إلى العقلِ المفكر وما يستطيع أن يصل إليه من آفاق المعرفة والقدرة على الإبداع والاستدلال، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَات)(الإسراء/ 70).

إن تكريم اللهِ للإنسان في الإسلامِ هو تكريم لذاته الإنسانية وتكريم لدوره (خلافة الله). (وَفضَّلْنَاهُمْ عَلى كثيرٍ ممَّن خَلقْنَا تفْضيلاً)(الإسراء/ 70). فضّله حتى على الملائكة الذين لا عمل لهم سوى عبادة الله والذين خلقهم من نار وخلقه من طين وذلك عندما أمرهم بالسجود لآدم الإنسان. وبرزت مقومات التفضيل التكريمي من خلالِ المعرفةِ التي شاء الله أن يودع منها عقلِ الإنسانِ ما لم يشأ أن يودعه عقل الملائكة، (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءِ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)(البقرة/ 31-33).

أودع الله في الإنسان بعض مفاتيح المعرفة وهي في ذاتها صفات الهية من دونها لا يستطيع الإنسان أن يقوم بمهمة خلافة الله. من هذه المفاتيح/ الصفات أن يكون الإنسان رقيباً على نفسه ممسكاً بناصيتها قيّماً عليها على النحو الذي شرحه أبو حامد الغزالي (توفي 1111م) في كتابه (إحياء علوم الدين)، وأن يكون قاضياً على أعماله وعلى نواياه على قاعدة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إنما الأعمال بالنيّات»، وعلى قاعدة قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ (فإنه يعلم السرّ وأخفى)(طه/ 7).

كثيرة جداً هي المخاطبات الإلهيَّة في القرآن الكريم (لقوم يعقلون)، (لقوم يعلمون)، (لقومٍ يتفكرون)، (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أنفسهِمْ مَا خَلقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمَّى)(الروم/ 8). (فلينظر الإنسان ممَّا خلق)(الطارق/ 4). (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات)(يونس/ 101). (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها)(الحج/ 46). (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله)(الأعراف/ 185). (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت)(الغاشية/ 16-20). (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ

الألبَابِ)(آل عمران/ 6).

عندما يسخر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض (لقمان/20)، فإن معنى ذلك أن الإنسان أهم من الطبيعة. أي أن الإنسان أعظمُ (مثلاً) من الشمس التي ذهب في تعظيمه لها إلى حدّ العبادة. وأعظم من القمر ومن النار ومن الرياح وغيرها من الظواهر الآفلة. وعندما يجعل الله علاقة الإنسان به علاقة مباشرة، وعندما يجعل حسابه ثواباً وعقاباً مهمة إلهية فقط، وعندما يحمّل الله الإنسان تبعات خياراته وأعماله في الدنيا وينصبه حكماً على نفسه وقاضياً على نواياه، فإنه بذلك يرفع من قدره ويكرّمه ويصطفيه على كثير ممَّن خلق.

هذه الصفات تجرد الإنسان عن التبعية العمياء، وتسمو به إلى الطاعة المطلقة لله من خلال العقل والعلم والفكر، وفوق ذلك من خلال حريته في الاختيار: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(الزمر/ 39). (إنما يخشى الله من عباده العلماء)(فاطر/ 28).

وزيادة في تكريم الذات الإنسانية فإن الإيمان بالله في الإسلام لا يكون وراثياً من بطن أم مثلاً، ولا يكون إجرائياً بطقوس رمزية، ولكنه يكون بفعل إرادة فردية، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(الكهف/ 29).

والإيمان لا يكون بالإكراه: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)(البقرة/ 256). و(لا- هنا ليست ناهية، أي لا- تُكرهوا الناس حتى يؤمنوا، ولكنها نافية بمعنى لا يكون إيمان بالإكراه.

إن الذاتية الإنسانية تتبلور في الأنا من خلال صياغة الركن الأوّل في الإسلام. فعبارة (أشهد أن لا- إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله)، تعني: أنا الإنسان أقرّر أنني أؤمن وأشهد أن لا- إله إلاَّ الله وأن محمدا رسول الله، فالإيمان هنا ليس إرثاً ولا منّة ولا أمراً مفروضاً. الإيمان هداية من الله (يهدي الله لنوره من يشاء)(النور/ 35) وهي هداية تضيء العقل الإنساني وتفتحه على معرفة الله والإيمان به.

وللتأكيد على الحرية الإنسانية التكريمية للإنسان ترد فِي القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر النبي بحدود مهمته رسولاً من عند الله منها: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ، إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)(الغاشية/ 20-26).

(قُل أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ)(النور/ 54).

(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(يونس/ 99).

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)(النساء/ 80).

(فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ)(الأنعام/ 104).

(إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)(الزمر/ 41).

ولقد ذهب الإسلام في احترام حرية الإنسان وفي احترام وكالته عن نفسه أمام الله تأكيداً لكرامته الإنسانية إلى حد إلغاء أي وساطة بين الله والإنسان. فلا سلطة لأي مرجعية على إيمان الفرد سوى سلطته على نفسه في الدنيا وسلطة الله عليه في الدنيا وفي الآخرة، ثواباً أو عقاباً: (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)(المؤمنون/ 117-118).

(وَقُلِ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)(الكهف/ 29).

في كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) يتحدّث الشيخ محمود شلتوت ـ إمام الأزهر الشريف ـ عن المرتدّ عن الإسلام في ضوء الآية القرآنية الكريمة: (وَمَن يَرْتَدِدْ منكُمْ عَن دينه فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنْيَا وَالآخرَة وَأُوْلَئك أَصْحاب النَّار هُمْ فيهَا خَالدُونَ)(البقرة/217). فيلاحظ الشيخ شلتوت أنَّ الآية الكريمة لا تتضمن سوى عقوبتين اثنتين: عقوبة في الدنيا (حبطت أعمالهم)، وعقوبة في الآخرة (أصحاب النار).

أقرّ الإسلام مبدأ العقوبة لله في مرحلتيه التأسيسيتين على ما بين المرحلتين من اختلافات. أولاً: في المرحلة المكية التي تميزت باستقواء الكفار على المسلمين الذين كانوا مجرد أقلية مستضعفة، وثانيا: في المرحلة المدنية عندما تحوّل المسلمون إلى قوة حاكمة، وعندما أقاموا النواة الأولى للدولة. ومع الالتزام بمبدأ العقوبة لله وحده تمسك المسلمون في المرحلتين أيضا بمبدأ الجدال مع غير المؤمنين بالتي هي أحسن، من غير أن تؤثر وقائع الانتقال من الاستضعاف إلى الاستقواء على التمسك بالثوابت المبدئية.

ثَمَّة ملاحظة توضيحية إضافية. وهي أن الآية القرآنية قالت: (وَمَن يَرْتَدِدْ منكُمْ عَن دينه فَيَمُتْ) ولم تقل فيُقتل؛ فالموت هو عملية انتقال الروح إلى بارئها بصورة طبيعية أما القتل فإنه موت بالعدوان أو بالعقاب. الموت هو رجعة النفس إلى ربها راضية مرضية، والقتل هو انتزاع للنفس بالقوة.

وهنا لا بد من توضيح الفارق بين الارتداد عن الدين والخروج من صف المسلمين إلى صف أعدائهم. إن حكم الردة حكم إلهي في الدنيا (حبطت أعمالهم) وفي الآخرة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). أما الخروج من صف المسلمين إلى صف أعدائهم فتلك خيانة في الدنيا وعقوبتها دنيوية تحددها القوانين وتُصدر أحكامها هيئات قضائية مختصة، كانت ولم تزل في معظم قوانين العالم عقوبة بالإعدام.

يقوم التشريع الإسلامي كما هو معروف على القرآن الكريم أساساً، وعلى السنة النبوية الشريفة، وعلى المعقول الموافق لروح المنقول، بالإجماع والقياس والاستصحاب

والاستصلاح والاستحسان. أكدت الشريعة على أمور عديدة تصون الكرامة الإنسانية ومن أبرز هذه الأمور المساواة بين الناس، وحماية حق الحياة (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاَّ بالحقّ)(آل عمران/ 151)، وحماية البشرية كأسرة إنسانية واحدة. (ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً)(المائدة/ 32). وقبل ألف عام من إعلان جان جاك روسو "إنّ الإنسان يولد حراً". قال عمر بن الخطاب في رسالة لعمرو بن العاص عبارته الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

والاجتهاد الفقهي هو في ذاته مَعلم من أبرز معالم احترام الكرامة الإنسانية في ممارسة حرية الفكر والرأي والبحث عن الحقيقة واحترام الاختلاف في طرق الوصول إليها وحتى في توصيفها. لقد دعا النبيّ ـ عليه السلام ـ إلى الاجتهاد علي قاعدة: "اجتهدوا فكل ميسر لما خلق له"، وهي قاعدة عامة مفتوحة لكل مجتمع في كل زمان وفي كلّ مكان. ولذلك رفض الإمام مالك العمل باقتراح هارون الرشيد بفرض مذهبه على الناس. وبرر الإمام مالك رفضه بحرصه على عدم تقييد حرية الاجتهاد. وقصة الخليفة عمر بن الخطّاب في قضية المهور معروفة عندما تراجع في ضوء اعتراض امرأة كانت بين المصلّين في المسجد، عن اجتهاد خاطئ له مردداً بأعلى صوت: "أصابت امرأة وأخطأ عمر".

ولقد بلغ احترام الحرية الإنسانية في الإسلام حدّ الاعتراف بشرعية التباين إلى حدّ الاختلاف في تفسير آيات القرآن الكريم نفسه. والاختلاف هنا ليس كامناً في النص المقدس، بل أنَّه اختلاف إنساني على الفهم غير المقدس للنصّ. أنه اختلاف بين المفسرين والمجتهدين حول إشراقات أكثر من معنى في عقول مختلفة حول نصّ واحد. أنه اختلاف بين آراء وليس اختلافاً مع النصّ. ومن هنا نشأت المذاهب والمدارس الدينية المتعددة التي تشكل ظاهرة صحة وعافية في مجتمع يحترم عقل الإنسان وكرامته وحقه في استنباط الأحكام ضمن الأطر العلمية والدينية الرصينة.

لم يفرض الإسلام نفسه ولم يشق طريقه إلى القلوب والعقول بالخوارق من الأعمال. فالرسول مُحمَّد ـ عليه السلام ـ لم يقم بمعجزات من نوع شفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله. أو بتحويل العصا إلى حية تسعى بإذن الله، أو بمخاطبة الحيوان أو سوى ذلك ممَّا يفوق قدرة البشر الطبيعية. الإعجاز الأهم والمستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها الذي جاء به مُحمَّد ـ عليه السلام ـ هو القرآن الكريم من حيث إنَّه نصّ إلهي يحمل في المحدود من كلماته وأحرفه، اللامتناهي من المعاني التي يمكن استخلاصها لتتناسب مع طبيعة التطور الإنساني في كلّ زمان ومكان.

خاطب الإسلام العقل الإنساني احتراماً له واعتمد على المنطق وعلى مقارعة الحجة لتسفيه عقيدة الشرك، ولتحرير الإنسان من عبادة الأوثان القديم منها والمستحدث، احتراماً له أيضا وتكريماً لإنسانيته بعبادة الله الواحد الأحد.

من خلال ذلك يجدر التوقف أمام أمر أساسي وهو أن التكريم الإلهي للإنسان الوارد في القرآن الكريم هو تكريم بالمطلق، سواء كان الإنسان مؤمناً بالله أو كافراً به. سواء كان

مسلماً لله أو جاحداً له، وبالتالي فإن التكريم ليس وقفاً على فئة دون أخرى من الناس، فالكرامة الإنسانية المستمدة من إرادة الله وفضله كرامة تشمل الناس جميعهم أياً يكن جنسهم أو لونهم أو لغتهم وبصرف النظر عن معتقداتهم وآرائهم؛ فالله ليس رب اليهود وحدهم، أو رب النصارى وحدهم، أو رب المسلمين وحدهم، إنه رب العالمين.

ثانياً: الإسلام أمام تحديات الكرامة الإنسانية

تحدّد علاقة المسلمين بالعالم المعاصر العوامل الرئيسة التالية:

1 - العولمة، والتخوّف الإسلامي ممَّا قد تحمله في طياتها من إلغائية للثقافة وللقيم وللهوية الإسلامية، ومن هيمنة سياسية واقتصادية على العالم الإسلامي.

2 - الإسلاموفوبيا، بمعنى كراهية المسلمين التي تنتشر كالنار في الهشيم في العالم المعاصر والتي ازدادت حدة بعد جريمة 11/9/2001م في نيويورك وواشنطن.

3 - التخلّف عن مواكبة التقدم العلمي والاقتصادي والإنمائي العالمي، الذي ترزح تحته معظم المجتمعات الإسلامية، والذي يترافق مع ارتفاع في نسبة الأمية، والبطالة والإنتاجية.

4 - الخلافات التي تعصف بين دول العالم الإسلامي والتي تحول دون تحوّله إلى كتلة متراصة تحتل موقعاً محترماً في لعبة الأمم وفي صناعة القرارات الدولية. الأمر الذي يجعل المسلمين غثاء كغثاء السيل في مجرى العالم المعاصر، من دون أن يشكو من قلة في العدد أو من قلة في الثروات الطبيعية.

وتتداخل هذه العوامل وتتشابك بحيث يتعذر معالجة أي منها بمعزل عن العوامل الأخرى، أما الجامع المشترك بينها فيتمثل في المبادئ الأساسية التالية:

المبدأ الأوَّل: تحوّل القضايا الوطنية (مثل حقوق الأقليات وحتى الأفراد وحرية العبادة وسواها) إلى قضايا عالمية (مؤتمر الأقباط في الكونغرس بتاريخ 16/11/2005م). وكذلك تحوّل القضايا العالمية (مثل: السلام والتنمية وحركة رؤوس الأموال والاستثمارات والخدمات وتبادل السلع) إلى قضايا وطنية.

المبدأ الثاني: هو أن القرار الوطني في دولة ما لم يعد ملكاً مطلقاً لأصحابه فقط أو وقفاً عليهم فقط. ولكن عملية اتخاذه باتت جزءاً من عملية أوسع تلعب فيها عناصر ما وراء الحدود دوراً أساسيا. وبالتالي فإن الممثلين المنتخبين المكلفين بتسييس وإدارة أمور شعب ما أو دولة ما، أصبحوا رهينة نظام عالمي له قوانينه الخاصة التي لا تلتقي دائماً وبالضرورة مع القوانين المحلية، والتي كثيراً ما تتناقض معها أيضاً.

المبدأ الثالث: هو انحسار فرص التنوع الثقافي الوطني علماً بأن الدين مكوّن أساسي، بل المكوّن الأساسي لكل ثقافة. أن الشعور بالاختناق الذي بدأت تعاني منه ثقافات متعددة يعود إلى هيمنة ثقافة واحدة على العالم وإلى محاولة فرض قيمها وتعميد هذه القيم مقياساً

وحيداً للتخلف أو للتحضّر.

لم يعد العالم منقسماً فقط إلى شمال غني وجنوب فقير، فبعد دخول عامل المعرفة واللامعرفة، أصبحت هذه المعادلة أشد خطراً (مؤتمر قمة المعلوماتية في تونس).

إن الجمع بين الغنى والمعرفة من جهة أولى، وبين الفقر واللامعرفة من جهة ثانية، يكوّن حالة انشطارية في المجتمع الإنساني تحمل في طياتها مضامين أشد خطورة من الانقسام التقليدي القائم بين الشمال والجنوب منذ عقود. فنسبة الفجوة في الثروة بين أثرياء العالم وفقرائه كانت 30 إلى واحد في الستينات من القرن الماضي. ولكن بعد عشر سنوات تضاعفت هذه النسبة وأصبحت 60 إلى واحد، وفي أقلّ من عقد من الزمن أصبحت النسبة في عام 1997م، 74 إلى واحد، لتتجاوز هذه النسبة في مطلع القرن الواحد والعشرين عشية الانهيار الكبير في الأسواق المالية العالمية.

فعلى صعيد الملكية كان 200 بليونيراً فقط يملكون أكثر ممَّا يملكه 41 بالمئة من سكان العالم، وعلى صعيد الإنتاج فإن 600 مليون إنسان في الدول الفقيرة ينتجون أقلّ من ثلاثة من أصحاب المليارات الذين يملكون مؤسسات صناعية أو مالية دولية كبرى. وفي العالم 40 شركة متعددة الجنسية تملك كلّ واحدة منها أكثر ممَّا تملكه مائة دولة من الدول الفقيرة.

أما نسبة الفجوة المعرفية فإنها أشد خطورة. ذلك أن عشر شركات كبرى فقط من شركات الاتصال تسيطر على 86 بالمئة من السوق، وأن عشر دول فقط تقدم 95 بالمئة من براءات الاختراع والاكتشاف في العالم. ذلك أن المعرفة تقود إلى المزيد من المعرفة وبالتالي إلى المزيد من الغنى والثروة، والعكس صحيح.

والدليل على ذلك أنه في الفترة بين عامي 1960 و1989م زاد نصيب الـ20 في المائة الأكثر ثراء في العالم من 70 في المائة إلى 38 في المائة من الدخل العالمي، أما العشرون في المائة الأكثر فقراً فقد انخفض نصيبهم إلى أقلّ من 15 في المائة، وأكثريتهم الساحقة من المسلمين.

هذا الاستقطاب للثروة يزداد أيضاً داخل الدول الأكثر ثراء؛ ففي الولايات المتحدة يسيطر واحد في المائة من الأكثر ثراء على 40 في المائة من الثروة القومية (International Herald Tribune، 19/4/1995).

هناك أقلية غنية من البشر لا تتعدى خمس سكان العالم تسيطر على وتستهلك 80 في المائة من الموارد الطبيعية في هذا العالم، و(النموذج الغربي) للتنمية يكلف العالم الثالث، وهو في معظمه من الشعوب الإسلامية (بسبب الفقر وسوء التغذية والجوع والأمراض البسيطة العلاج) حياة 45 مليون شخص سنوياً من بينهم 15 مليون طفل دون سنّ الخامسة.

إن (وحدانية السوق) التي أصبحت مرادفة لـ(الحداثة) تأخذ شكل انهيار العلاقات الاجتماعية لصالح منظور (داروينى) اجتماعي كما كان يتصورها (سبنسر)، وهي الحرية الممنوحة للأقوى لالتهام الأضعف.

أمام هذا الواقع يجد المسلمون أنفسهم أمام تحديات لا سابق لها تضعهم في جبهة ضد عولمة الفقر من حيث إنَّه امتهان للكرامة الإنسانية. فالدين أساساً هو من اجل الإنسان وليس العكس. وفي العقيدة الدينية الإسلامية الكثير من التعاليم التي تحضّ على التكافل الاجتماعي بين الناس؛ إن الإسلام يحترم الملكية الفردية ولكنه في الوقت نفسه يحرّم خزن الأموال، بمعنى أنَّه يحرم منع أو عرقلة تداولها بين الناس.

(والذين يكنزون الذهب والفضة (الأموال) ولا ينفقونها في سبيل الله (في سبيل الجماعة) فبشرهم بعذاب أليم)(التوبة/ 35).

ويشّدد الإسلام على ضرورة توظيف المال فيما ينفع الناس واستثماره في الإنتاج، وفي تشغيل اليد العاملة.

ويحرص الإسلام في نظرته الاقتصادية على أن تكون الثروة المالية متداولة بين الناس. وقد سنّ التشريعات التي يؤدّي اعتمادها إلى أن لا يكون المال (دولة بين الأغنياء منكم)(الحشر/ 7).

ولقد كان ابن خلدون سباقاً عندما عالج في مقدمته قضايا التنمية الاقتصادية في الإسلام تحت عنوان (الحضارة وكيفية تحقيقها). رابطاً التقدم الحضاري بالتنمية الاقتصادية. كما أن كتاب الإمام أبي يوسف (الخراج) (توفي 182هـ). يعتبر عن جدارة قمة علمية في دراسات التنمية الاقتصادية في الإسلام. ومن قبله كتاب أبي عبيد القاسم بن سلاّم (الأموال) الذي جمع أصول نصوص الشريعة المتعلقة بالمال وحركته، والاقتصاد والثروة وشرحها وبيّن كيف طبّقت في الصدر الأول للإسلام.

أما على المستوى الثقافي، فمن الملاحظ أن العولمة تتجاوز الخصوصيات الثقافية المختلفة بما يؤدّي إلى هيمنة ثقافة واحدة، لها مقومات قيمية وأخلاقية تختلف بل تتناقض عن كثير من المقومات القيمية والأخلاقية الإسلامية.

إسلامياً تكوّنت عناصر الثقافة والتقاليد الثقافية الإسلامية ونمت وتطوّرت بتناغم أساسي مع الدين. وهذا يعني أن فك الارتباط بين الدين والثقافة الإسلامية يجرد هذه الثقافة من هويتها ويقتلعها من جذورها الروحية. وعلى العكس من ذلك فإن الثقافة الغربية الحديثة - والمعولمة- تكوّنت خارج الدين وفي أحيان كثيرة قامت على تحدّيه وعلى التناقض معه. وهذا يعني أن نموّها أو تطوّرها يتطلب دائماً الإبقاء على الحالة التمرّدية والانقلابية للثقافة على الدين، والعمل على عزله عن التدخل أو التأثير في مسيرتها. أدى ذلك إلى قيام الهوة الواسعة بين الدين والعلمانية، أي بين ما هو إلهي وما هو بشري، بين ما هو مقدس وما هو دنيوي، حيث الهيمنة في ثقافة العلمنة المعولمة هي دائماً وبالضرورة للدنيوي.

من هنا التناقض بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية في تحديد مفهوم الكرامة الإنسانية.

إن التشخيص الغربي لواقع العالم الإسلامي يقوم أساساً على هذا التناقض. فالغرب يعزو تأخر المجتمعات الإسلامية إلى تمنّعها عن فك ارتباطها الثقافي بالدين. وهو يرى أن هذه المجتمعات تقصر عن مواكبة المسيرة الحضارية لأنها غير قادرة على أن تحذو حذوه بصناعة ثقافة لا دينية.

في الثقافة الغربية الدين ماضٍ. والتمسك بالدين هو ارتداد عن المستقبل. من هنا فإن الثقافة الغربية لا ترفض الإسلام كإسلام، ولكنها ترفض الدين، إسلامياً كان أو مسيحياً، من حيث هو مكوّن لثقافة عصرية. وتعتبر التمسك به حجر عثرة في وجه انتشار الحضارة الإنسانية القائمة على المبادرة الفردية.

ويصل التباين بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية (أرجو أن تلاحظوا أنني هنا أشير إلى الغرب، وليس إلى المسيحية؛ لأنّ التعاليم والقيم المسيحية منفصلة تماماً عن ثقافة الغرب وحضارته)، إلى نقطة اللالتقاء عندما يعتبر الغرب أن نجاحه وتفوقه هو ثمرة أخذه بالرأسمالية وبالعلمنة، وعندما يعتبر في الوقت نفسه أن فشل العالم الإسلامي وسقوطه، كما يقول المستشرق أرنست رينان (الماركسية والعالم الإسلامي، ص97-98)، هو ثمرة التزامه بالدين، أما العالم الإسلامي فإنه يعزو تفوق الغرب إلى ممارسة الاستعمار النهبي، وإلى امتهان كرامة الإنسان في المجتمعات غير الغربية، ويعزو بالتالي تأخر الشعوب الإسلامية إلى ما تعرضت له من استعمار وابتزاز وإلى ما واجهته من محاولات استهدفت ولم تزل تستهدف مسخ شخصيتها وثقافتها الدينية في محاولة لإضعافها، ومن ثُمَّ تدجينها واستتباعها.

قرأتُ للبابا السابق يوحنا بولس الثاني -وهو عالم في الفلسفة واللاهوت قبل أن يعتلي سدة البابوية- إنه لولا ديكارت لكانت المسيحية في حال أفضل.

إن نظريات ديكارت وآدم سميث ومارلووي تشكل الأسس الفكرية للعولمة. فالعلماء الثلاثة يطرحون فرضيات ينسجون منها صيغة العلاقات بين الله والطبيعة والإنسان. وهذه الافتراضات هي:

- افتراض ديكارت القائل: (يتعين علينا أن نصبح سادة ومالكين للطبيعة).

- افتراض آدم سميث القائل: (إذا سعى كلّ منا إلى تحقيق مصلحته الشخصية فإن ذلك سيؤدّي في نهاية المطاف إلى تحقيق المصلحة العامة، إذ إن هناك (يدا خفية) تحقق هذا التناغم).

- افتراض مارلووي الذي تضمنه كتابه (فاوست) الذي يقول: (على الإنسان أن يصبح قديراً تمام المقدرة بدلاً من الله حتى يتمكن من تسيير العالم).

أدت هذه الأولويات إلى نتائج سلبية مدمرة هي:

- تلوث الطبيعة وتلفها.

- تزايد كبير في العنف البشري: فقد بات واضحا أن منطق السوق -بما يتضمنه من منافسات- إنَّمَا هو منطق حرب يخلق نوعا من عدم التوازن المتزايد بين الشمال والجنوب كما يخلق تباينات متزايدة داخل الشعب الواحد بسبب تراكم الثروات لدى أحد قطبي المجتمع وتراكم الفقر لدى القطب الآخر.

- إن ادّعاء تسيير العالم بدلا من الله، واستبعاد الإيمان بالقيم السماوية المطلقة، وجعل الإنسان الفرد مركزاً ومقياساً لكل شيء، خلق نوعا من شريعة الغاب حيث تتناحر الطموحات الفردية دون أي رادع قيمي أو أخلاقي لتحقيق السلطة والمتعة، كما أسس لمبادئ تنمية الأفراد والجماعات بكيفية تولّد فوضى العنف في المدن واختلال التوازن في العالم.

لا يستطيع العالم الإسلامي أن يقف في وجه هذا المدّ الإلغائي بمجرد الرفض. فالرفض لم يعد ممكناً واقعياً بعد أن أنتجت هذه الحضارة كلّ الوسائل التي تمكّنها من تعميم ثقافتها وقيمها وأذواقها على الآخرين. ولكن العالم الإسلامي يستطيع بالانفتاح على الحضارة الإنسانية، وبالمشاركة في صناعتها، وبالمساهمة في إبداعاتها أن يقف في وجه المدّ الإلغائي الذي تتعرّض له ثقافته المميزة، بل أنه يستطيع -مع المسيحية- أن يضفي عمقاً روحياً على هذه الحضارة وأن يهذب سلوكها بحيث تكون أكثر احتراماً للكرامة الإنسانية.

****

*) كاتب وباحث من لبنان.